

الفصل الرابع

الجهاد في الإسلام على يد رسول الله ﷺ والسلف الصالح من بعده

[إن رسول الله ﷺ له من الصفات الأساسية للرسول كمالها وتامها، وإن ذلك دليل على أنه رسول الله حقاً، خلقه الله على، أكمل الأحوال، وأرفع المقامات، ووفقه لأعظم الأعمال مما ينوء بحمله الرجال مجتمعين يسار في طريق لم تضطرب بدايته فيه ولم تتحول مسيرته عنه]^(١).

ولم يلجأ في حياته قط إلى العنف في تعاملاته، فاستحق أن يلقب (بِنبي الرحمة). وكان الرسل الذين تتابعت رسالتهم إلى البشرية: [يمثلون ذروة الكمال البشرية، لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله، ويقومون بأضخم مهمة في الوجود، وهي مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح إلى الكمال، بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيواني أو مادي أو غريب عن فطرتها، حتى تصبح ربّانية]^(٢).

حتى ختمت رسالة محمد ﷺ الرسالات السابقة عليه، قال تعالى:

(١) سعيد حوى- الرسول ﷺ - مكتبة وهبة ص ١١٥.

(٢) سعيد حوى الرسول ﷺ مكتبة وهبة ص ٨.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

لقد أكمل الله به الدين، وأتم على خلقه النعمة وأخرج برسالته الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه الذكر، وتكفل بحفظه ليحقوق به الحق، ويبطل به الباطل، وليبقى عبر الزمان والمكان أمل الباحثين عن العدل وعن الخير، وعن كرامة الإنسان^(١).

لقد اختار الخالق سبحانه الرسول ﷺ ليعلم البشر الدستور الذي يصلح حياتهم ويضمن لهم الحياة الطيبة إذا ما اتبعوه وهو [القرآن الكريم].

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وحمل لنا القرآن الكريم النور والهداية، وما علينا إلا الاهتداء بهديه. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ ﴾ [محمد: ٢٤]. بعث الله النبي الكريم للبشرية، شاهداً ومبشراً ومذنباً، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ يُرْسِلِ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقد اصطفى الله من البشر من كانوا رسلا.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ (٢١)

(١) د. عبد الصبور مرزوق - معجم الاعلام والموضوعات في القرآن الكريم ج.١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٠٤.

أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

جاء محمد عليه السلام بدين الإسلام الذي جعل للبشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم من القيم والتشريعات ما يضمن سعادتهم والرحمة بهم. وكان عليه السلام رحيمًا بالجميع، مسلمين وغير مسلمين، كبارًا وصغارًا، أحرارًا، وأرقاء، وأصدقاء وأعداء. حتى حين قيل له أن يدعو على المشركين قال: [إني لم أبعث لعنًا وإنما بعثت رحمةً].

ووصفه القرآن الكريم بالرحمة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إن رسولنا ﷺ نبي الرحمة في الكثير من آيات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

إن لنا في الرسول الكريم المثال والقدوة، وقد خاطب الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن الأمثلة عن سلوك الرحمة، لديه عليه السلام ما روته السيدة عائشة رضا الله عنها: أنه قَدِمَ ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قال: نعم، قالوا: ما نقبل أبناءنا. فقال ﷺ: أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ الرَّحْمَةَ. متفق عليه. رواه البخاري ص ١٢٢. قال تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].
 وجزاء الرحمة عظيم، يشعر به الناس في حياتهم سعادةً ورضى
 في نفوسهم، وفي الآخرة رضاً ومثوبةً من ربهم. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ
 كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (١٧) ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴾
 [البلد: ١٧ - ١٨].

وقد سمي الخالق سبحانه محمدًا ﷺ (رحمةً)، قال تعالى: ﴿ وَمَا
 أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، وسماه ﴿ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥)
 وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾، ومن الأسماء التي سُمِّي بها الرسول
 نفسه (نبي الرحمة).
 وقال ﷺ: [إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ].

وكان النبي ﷺ [نبي الرحمة] قدوة للبشر:
 عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول في
 بيئتي هذا: [اللهم من ولي من أممي شيئاً فشق عليهم فاشقُ عليه،
 ومن ولي من أممي شيئاً فرفق بهم فرفق به]. رواه مسلم
 لقد جعل الخالق سبحانه الرسول-محمد-ﷺ- [خاتم النبيين] مما
 يؤكد أن رسالته البشرية جاءت كاملة شاملة كافلة لجميع مصالح البشر
 وسعادتهم.

« قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١].
 « وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا
 فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

جاء النبي محمد ﷺ نورًا وهدىً للدين، أهدى الله سبحانه معه

للبشرية كتابه العظيم، القرآن الكريم، أعظم وأكمل الكتب السماوية،
وآخر الرسائل الربانية، وحوى القرآن الكريم الدستور الأخلاقي
الكامل الذى يتميز بالرحمة التى أكدها الرسول الكريم فى كل أعماله
وأقواله.

فهو نبي [الرحمة] فى أوقات [السلم]، وفى أوقات [الحرب]...
حكَّ ﷺ على (الرحمة) والتسامح والرفق فى المعاملات: قال ﷺ:
[تلقت الملائكة روح رجل ممن كانوا قبلكم. قالوا: أعملت من الخير
شيئاً؟ قال: كنت أمر فتيانى أن يُنظروا المعسرَ ويتجاوزوا عن الموسر،
فيجاوز الله عنه] رواه البخارى.

ولم تكن صفة الرحمة واضحة فى علاقة النبي محمد ﷺ بالمسلمين
فحسب، وإنما شمل بها المسلمين وغير المسلمين، كما لم تشمل الرحمة
أصدقائه فقط ولكنها شملت الأعداء والكبار والصغار والأحرار والكبار
والصغار. ولم تكن رحمته مع الإنسان فحسب وإنما امتدت إلى (الحيوان
والطير) وكل الكائنات.

قال ﷺ: [عُذِّبَت امرأة فى هِرَّةٍ، سجنَّتها حتى ماتت جوعاً، قد
دخلت فيها النار، لاهى أطعمتها ولاسقتها، ولاهى تركتها تأكل من
حشاش الأَرْض] عن أسماء بنت أبى بكر.

ومن رحمته بالحيوان والطير. عن أنس رضا الله عنه قال: [ما من
مسلم يغرس غرساً أو يزرع، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان
له به صدقه] رواه مسلم.

وكان الرسول ﷺ، يوصى الناس قائلاً:

إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه، وإذا آخى الرجل الرجل، فيسأله عن اسمه واسم أبيه، وممن هو— فإنه أوصل للمودة].

ويقول: [يقول الله عز وجل: المتحابون لجلالي لهم من نور يغبطهم النبيون والشهداء. إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لكانهم من الله تعالى. قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أقوال يتعاطونها... فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور، لأ يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: ﴿الْأَبْرَارَ أَكْرَمُوا لَمْ يَكُن لَكُمْ كِبَىٰ أَكْرَامًا يُخَوِّفُونَ لَوْلَا إِتْقَانُ اللَّهِ لَعَدَلَ الْبَالُ الْكَافِرِينَ﴾ (يونس ٦٢) نادى النبي محمد ﷺ بالكرامة الإنسانية، تأكيدًا لما جاء فى قوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء ٧٠) فالكرامة حق لكل إنسان مهما كان دينه أو جنسه.

كما أوصى الإسلام بأهل (الذمة)، وجعل لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين من حقوق وواجبات.

وصدر فى سلوكياته ومعاملاته عن إيمان بالدستور القرآنى، وما أكده من حسن معاملة أصحاب الديانات المختلفة.

ذلك أن الحقيقة العظيمة التى يقوم عليها الإسلام هى أن تعاليمه ومناهجه صالحة لكل زمان ومكان، فهو الدين الذى يعترف بسائر الأديان السماوية وكرم جميع الأنبياء، وألزم الناس بالإيمان بهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْبَاقِي﴾ (الأنعام ١٦٦) وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴿ [سورة البقرة: ٢٨٥].

وعلى شريعة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ إمام الأنبياء، وخاتمهم،
أسس الدولة التي أشادت بها كل الديانات السماوية التي جاء بها
الرسل الكرام من الخالق جل وعلا.

وكان قوام هذه الدولة (حسن الخلق) العلم العدل الأمانة الصدق
المحبة الأخوة، محمد هذا الرسول العظيم، الذي جعله الله سبحانه
خاتم النبيين وسيد ولد آدم، ومنحه (جوامع الكلم)، وجعل الأرض
مسجداً وطهوراً له، وأرسله للناس كافة (هادياً)، ومبشراً و(نذيراً).
إن رسالة [محمد] ﷺ ليست للمسلمين فقط، إنما هي رسالة
للإنسانية.

إنه [محمد] ﷺ الرسول الذي غيّر وجه الدنيا، وجدير بنا اتباع سنته.
قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وستظل
السنة النبوية المطهرة واحة للنفوس، ومصدر الاقتداء بخلق الرسول
ﷺ، يستمد منه البشر قوة الدنيا، والجنة في الآخرة، لأنه استمدّها
من شريعة الله الغراء، وكتابه العظيم، القرآن الكريم، وهو سبحانه كما
قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وحين أكمل الله بالرسول محمد ﷺ (الدين)، وأتم به النعمة على المؤمنين، اختاره الله لجواره، واللاحق بالرفيق الأعلى من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فابتدأ به المرض في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، فخرج إلى الناس عاصبا رأسه، فصعد المنبر فشهد، وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قُتلوا في (أحد) ثم قال: [إن عبدا من عباد الله خيّر الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله. ففهمها [أبو بكر] رضا الله عنه فبكى، وقال: بأبي وأمي نقديك بآبائنا وأمّهاتنا وأبنائنا، وأنفسنا، وأموالنا]. إنه النبي [محمد] ﷺ الذي ترك للبشرية كنوزا من الوصايا تصلح أحوالهم في كل زمان ومكان، وكررها على امتداد دعوته العظيمة، ولخصها في [خطبة الوداع].

وكان نهجه في [الجهاد] من أجل نشر الدعوة نهجا رائعا صالحا لكل زمان ومكان، حتى يتعايش البشر جميعا في سلام ومحبة وأمان. وكان أول جهاد في الإسلام قام به النبي ﷺ [الهجرة] من مكة إلى المدينة، ثم كانت الغزوات.

موقف النبي ﷺ من الجهاد

من المهم أن نتعرف على موقف النبي ﷺ من الجهاد، فهو للبشرية القدوة والمثل الأعلى.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد انبثقت رؤية النبي ﷺ، وتعاملاته في الجهاد أو الحروب، من

خلال أخلاقياته العامة إلى امتداد حياته، في معاملته وسلوكياته في السلم، أو في الحرب، والتي اتبعت منهاجاً أخلاقياً واحداً، يعتمد على قيم نبيلة تتسم بالعدل والإحسان والرحمة والسماحة وعدم العدوان.. وقد مكنته هذه الأخلاقيات من تحقيق الانتصارات في حياته وأيضاً في [جهاده].

تعرض الرسول ﷺ للأذى والإساءات ممن لم يدخلوا في الإسلام. في الطائف: أساء إليه بعض السفهاء فكانت كلمته الشهيرة رداً عليهم، [عسى أن يخلف الله من بين أصلابهم من يعبده]، وهذا مما يؤكد سماحته، ورحمته، وترفعه عن الإساءة إلى المسيئين. وفي آيات القرآن الكريم الكثير مما يؤكد رؤية الإسلام في التعامل مع من يخالفون تعاليمه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].
وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وظلت آيات القرآن الكريم توضح للنبي مسلكه مع أعداء الإسلام وتهديه في كل مرحلة من مراحل جهاده في سبيل الدعوة.

حين اجتمع عليه المخالفون بالشر والعداء ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمَّا لَمْ يُرَدِّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٨، ٣٠] [أمر

الله رسوله ﷺ أن يبلغ رسالته إلى أمته فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحًا مِّنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَّمَ فَعْلًا مَّا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقام رسول الله ﷺ بتبليغ هذه الرسالة العظيمة الصالحة لكل زمان ومكان..

وسلك سبلاً كثيرة لتبليغها، تارةً بالكلمة، والنصيحة، والموعظة، وأخرى بالرسائل وغيرها، وكان لا بد من مواجهة ومقاومة لمن بدءوا العدوان بالدفاع أحياناً عن الدين والأرض والعرض وفي وقت تلقيه ﷺ الإذن بالقتال، لنشر الدعوة، أو الدفاع عنها كانت (الحروب) التي تركت عبر التاريخ دروساً تتلقاها البشرية، وما زالت سماتها المميزة تحظى بالإعجاب من المفكرين وكبار الكُتَّاب، والسياسة الذين يكتبون عنها ويُعلِّمون من قدرها بحيث يعترفون أنه مع التطور العلمي والتكنولوجي المعاصر، فقد سبق الرسول ﷺ في تنظيم الحروب وفي الأخلاقيات التي ألزم بها المحاربين المسلمين معه ومن الأباطيل والافتراءات التي قيلت تلك التي أرجعت انتشار الإسلام في صدر الدعوة المحمدية إلى قوة السيف.

ودحض هذا الافتراء الأستاذ [عباس العقاد] رحمه الله بقوله: [ما كان للإسلام يومئذ من سيفٍ يصل به على أعدائه الأقوياء، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف، وطرائد الغشم والجبروت. وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونيسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين من العالم أجمع، وما روى التاريخ من أخبار الغزوات الدينية في عامة هذه الأقطار ما يكفي لتحويل الآلاف المعدودة فضلاً

عن مئات الملايين - من دين إلى دين. وكان شمول العقيدة الإسلامية النفوس، هو العامل القوي الذي يجمع إلى الإسلام النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان ويستغنى عن (السيف) وعن (المال) في بث الدعوة^(١). ومن تعاملات الرسول ﷺ تتأكد قيمة احترام الأديان وتقديسها دون تمييز، أو إكراه، واهتمامه بحرية التعبير عن الرأي والاعتقاد، وعدم التمييز بين الناس على أساس من جنسٍ أو عرفٍ أو دين.

واحترام حريات الناس وعقائدهم وطرق تعبيرهم عنها. ما داموا في ظل المواثيق التي ارتضتها الإنسانية سبيلا إلى السلام والتقدم.

أكد الرسول ﷺ قيمة (الأخوة) الإنسانية، التي ينبسط رداؤها على جميع الأجناس والأقوام، كما ينبسط على جميع الملل والديانات، [فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى] كما جاء في حديثه ﷺ، وكما جاء في القرآن الكريم ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٣، ١٤]،

إن الله سبحانه أوجد الشعوب والقبايل لتتعارف، وتصلح على العرف الحسن والمعرفة الرشيدة، لتجمعها أسرة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالتقوى، وهو في جهاده. لم يقصد إلا الدعوة إلى تعلم هذا الدين،

(١)عباس محمود العقاد- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص١٩.

والعمل بأوامر كتابه العظيم، والانتهاز عن نواهيه ولم يحارب لفرض هذا، وإنما حارب دفاعاً ومقاومة لمن يريدون إيذائه هو ومن آمن معه. مع من ترك حرية الاعتقاد للجميع عملاً بقوله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَمُنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤، ٢٣].

وقد عاش النبي ﷺ بين كفار مكة ثلاثة عشر عاماً، لم يؤذ أحداً منهم، فقد قامت دعوته على الإخاء والتسامح والإخلاص والتواضع، والصدق والمحبة، وكل القيم النبيلة التي تسعد البشرية في حياتهم، وضمن لهم الجنة في آخرتهم، إن الإسلام لم يأت بنظرية من اختراع بشر لكنه رسالة بعثها الخالق سبحانه إلى البشرية كلها تأخذ بيدها من الظلمات إلى النور، على يد محمد ﷺ، ولا بد من التمسك بهذه الرسالة الحضارية الإنسانية لتصد الدعوة للحروب في الغرب أو الشرق، لأن رسالة محمد ﷺ تدعو إلى تعمير الأرض.

وقد ظلَّ الرسول ﷺ يدعو كما تعلم من (القرآن الكريم) إلى القيم الرائعة والسلوكيات النافعة التي تضمن تعمير الأرض، وسعادة البشر في كل مكان، من أخوة ومحبة بين البشر إلى حسن الجوار، والسماحة، والعدل، والصدق، والأمانة، وغيرها من القيم الإنسانية النبيلة.

وقد أعطى الرسول ﷺ نموذجاً للقدوة الحسنة، ومثالاً رفيع المستوى للقائد العظيم.

وقدوة للعفو عند المقدرة، والصفح عند التمكن من أهل الإساءة حين جاء فاتحاً مكة كان بمقدوره أن ينتقم ممن أذاقوه وأصحابه صنوف القهر على مدى ثلاثة عشر عاماً. لكنه عمل بقول الخالق سبحانه وتعالى فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ . وقَدَّمَ أمثله سامية من الاعتدال وضبط النفس، واجتناب الكبائر، والأساليب الوحشية، التي كانت تسودُّ صفح الحرب في تلك العصور^(١).

ودخل مكة منتصراً في العام الثامن للهجرة، ودخل أهل مكة في الإسلام... وكان منهم من دخل عن إيمان حقيقي، وعقيدة سليمة، ومنهم المنافقون، لكنه أعلن قراره الإنساني للجميع [أذهبوا فأنتم الطلقاء]. وكانت حروبٌ، حروب دفاع عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَفَلِّتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْلِتُونَ كُفْرًا وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠) كان الإسلام في بداية عهده هو المعتدى عليه، وظل كذلك حتى بعد اجتماع الناس حول النبي ﷺ، وكانوا جميعاً يقاتلون مَنْ قاتلهم، ولا يزيدون على ذلك.

وكانت حروب النبي ﷺ حروب (دفاع) ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد، والإصرار على القتال، وتستوى في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم^(٢)، وكان الجهاد في عصر الرسول ﷺ نموذجاً رائعاً تظلله روح

(١) محمد عبد الله عنان _ مواقف حاكمة في تاريخ الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ص ٢١.

(٢) عباس محمود العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر ١٩٧٧ ص ٣٥، ٣٤.

المحبة والرحمة.

وكان يقول إذا بعث جيشه للقتال: [اخرجوا باسم الله، لا تغدروا، ولا تعتلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع].

وعن أنس رضا الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة) تلك هي القوة العسكرية التي بناها الرسول وحققت أعظم انتصار في مكة والمدينة وخيبر وحنين والطائف، وقدر لها بعد وفاته أن تنتصر على جيوش الأكاسة والقيصرة^(١).
وفي كتاب للدكتور أحمد شلبي^(٢)، [من السيرة المطهرة] يتساءل:
هل انتشر الإسلام بالقوة أم بالدعوة..؟ فيقول:

سلك الإسلام طريقه بالدعوة متبعا [القرآن الكريم] في آياته الكثيرة التي نادى بعدم الإكراه، وطلبت من الرسول ﷺ أن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة^(٣).

فخاطب القرآن الكريم الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَكَرِهُنَّ كُفْرًا وَلِي دِينٍ﴾ [الكافرون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢، ٢١]، وغيرها من الآيات القرآنية، التي تؤكد ضرورة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبين النبي ﷺ أهمية الجهاد في

(١) د. أحمد شلبي- من السنة النبوية المعطرة ج٩- الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٩.

(٢) د. أحمد شلبي- الجزء الثالث عشر منه.

(٣) الإسلام والقتال مكنبة الأسرة- الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠م ص٨.

قوله: [لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ] (١)، وقد قصد الرسول ﷺ التكرار ليؤكد رغبته في الاستشهاد في سبيل الله بغير حصر.

وقال أيضا: [رباطُ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سقوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها والروحة في سبيل الله يروحها العبد، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها] (٢).

الهجرة: كانت الهجرة هي أول جهاد للصحابه الكرام، حين نفذت طاقتهم، فأمروا بها، وكانت الظروف المحيطة بالمسلمين في مكة المكرمة قد بلغت حدًا خطيرا فهاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتي الحبشة، وقبل الإذن بالجهاد لم يحرك المسلمون ساكنا ولم يردوا بالمثل قط على الاعتداءات والتجاوزات على حقوقهم، واستمر الوضع على هذا المنوال مدةً بعد الهجرة وأخيرا أذن لهم بالجهاد.

ونزلت الآية الكريمة:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [الحج: ٤٠، ٣٩].

(١) البخاري: الإيمان ٢٦، مسلم: الإمارة ١٠٣، النسائي: الجهاد ٣٠.

(٢) البخاري: الجهاد ٧٣.

حين اشتدت عداوة المشركين للنبي ﷺ، نزل له الأمر الإلهي بالهجرة.

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].
وكان الجهاد أمراً إلهياً خوطب به الصحابة حين أمروا بالهجرة، وكان جهادهم في ذلك الوقت ممتثلاً في (الهجرة)، كما أمر كل من أراد البيعة بالهجرة كشرط أساسي.

إن الأحداث في هجرة الحبشة اختلفت عن الهجرة إلى المدينة، حيث أخذ الجهاد نمطاً آخر في عهد المدينة، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية. فالذين منعوا من استعمال السيف أذن لهم بالتسلح، وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذناً فحسب، بل أمراً إلهياً.

• إن المؤمن المجاهد بشرٌ يكره الموت كما تقول الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (٢١٦)].
لكن الله تعالى أذن لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال، قتال الذين أخرجوهم من ديارهم، وقتلوهم، وفتنوهم في الدين، ولكن بعد الهجرة أصبح الجهاد ليس إذناً فحسب بل أمراً إلهياً. وأصبح المسلمون بعد ذلك، مضطرين إلى (الجهاد) بسيوفهم.

ولقد أسس النبي ﷺ القوة العسكرية التي انتصرت بعد وفاته، على أيدي سلفه الصالح رضا الله عنهم. وهزمت جيوش الأكاصرة، والقباصرة، ورفعت علم التوحيد في أعظم إمبراطوريتين حينذاك.

وكان النبي ﷺ، نموذجًا فريدًا للأخلاق المثالية فى (الجهاد) يجدر بالأمة، الاقتداء به فقد أعطى أمثلة عظيمة تعلم البشر أعظم القيم.

إن العرب بعد اتحادهم تحت راية الإسلام، وتوحدتهم فى الإيمان بإله واحد، مع النبي (محمد) ﷺ، أثاروا الدهشة بانتصاراتهم فى غزواتهم ومواجهتهم للامبراطوريتين (البيزنطية) و(الرومانية)، تحت زعامة صحابة (محمد) ﷺ الذين تأسوا به، وساروا على دربه.

وقد اعتاد الكثيرون من مؤرخى السيرة على الحديث عما يسمونه (غزوات الرسول): مما دعى بعض المستشرقين المغرضين إلى الحديث عنها كحروب عدوانية، لكنها فى الحقيقة كانت تهدف إلى عقد معاهدات سلمية، لم يبدأ الرسول ﷺ فيها حربًا، ولا صراعًا. وإنما كان [إذا عَلِمَ بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث فى (غزوة تبوك) فلا يكف عن التأهب السريع، وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها وفى غزواته لم يحاصر محلة إلا تجنبًا للغدر والوقيعه^(١).

أما السلف الصالح فقد كان فى مقدمتهم [إرث القيادة الذى خلفه (أبو بكر الصديق)، يبدو فى خَلْقِ نموذج من التواضع والتسوية والأمانة والإهتمام بعمل الخير ورفاهية العامة].

سوف توفر هذه القيم نموذجًا صامدًا للقيادة فى العالم الإسلامى، وما وراءه. ورابع خليفة وهو على بن أبى طالب، هو أحد القادة المسلمين

(١) عباس العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر ١٩٧٧- ص ٤٢. ٤٠.

الأوائل ممن وضعوا في نص مكتوب شكلاً تفصيلياً للقيادة المستنيرة.
والتي ستظهر عناصرها فيما بعد في الخلافة النبوية والعباسية
وغيرها...

وينجلي ذلك في خطاب حول (القيادة) أرسله الخليفة (علي بن أبي
طالب) إلى تابعه الأمين (مالك الأشتر) عند تعيينه الحاكم المسلم الجديد
على مصر.

جهاد الصحابة

سار الصحابة على نهج النبي الكريم في الدعوة إلى الرحمة والبعد
عن العنف، وعدم البدء بالقتال فهذه وصية (أبي بكر رضا الله عنه)
وتتضمن وصايا عشرًا، فقد روى (الإمام أحمد في مسنده) عن (يحيى ابن
سعيد): أن أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام، وبعث (زيد بن أبي سفيان)
أميرًا فقال وهو يمشى وزيد راكب، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال
أبو بكر، وما أنا براكب وما أنت بنازل، إنى أحتسب خطايي هذه في
سبيل الله، إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع،
فدعهم وما زعموا [لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن
شجرًا مثمرًا، ولا نخلاً ولا تحرقها، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا للأكل،
ولا تجبن]^(١).

إن العرب قدّموا في فتوحهم الأولى أمثلة سامية من الاعتدال وضبط
النفوس، واجتناب الكبائر، والأساليب الوحشية التي كانت تسود
صحف الحرب في تلك العصور فقارن مثلاً وصية (أبي بكر) إلى الذاهب

(١) مسند بن حنبل.

إلى الحبشة لقتال المرتدين (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ، ولا امرأة، ولا تفرقوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بغيراً إلا لأكل)^(١)، وحديث (عمر بن الخطاب) عن العمال: (وإني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا بشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستنكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى، فو الذى نفسى بيده لأقصينهُ)^(٢).

تقدمت الدولة الإسلامية إلى الشعوب المفتوحة بمزيتين أو نعمتين، لم تعرفها فى عهد الحكم السابق: الأولى نعمة التسامح والحرمة الدينية، والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة، التى تفرض طبقاً لأصول وحدود معينة، وقد كان لهذا التسامح وهذه القناعة أثر فى تذليل سبل الفتح أمام العرب، فذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة، وأثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الاعتقاد أن تنزل عن أديانها لتعتنق دين الحكومة الجديدة^(٣). وكان السلام لمن سالم المسلمين فقد لجأ المسلمون إلى السلم إذا لجأ له أعداؤهم^(٤).

• قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١].

(١) ابن خلدون ج. القسم الثانى ص ١٥.

(٢) ابن الجوزى سيرة عمر بن الخطاب (مصر) ص ٨٢.

(٣) محمد عبد الله عنان- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام- الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٦.

(٤) د. أحمد شلبى- الإسلام والقتال- ص ٢٦.

« قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضَ لَكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ وَالْقَوَامُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠].

« قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

(القتال) فرض على المسلمين وهو كره لهم حتى يتحقق تعديل مواقف المشركين من مواقف العداء المشرك المعتدى إلى مواقف السلام، فهو حراك لا (نفي ولا هلاك)^(١).

غزوات الرسول ﷺ وحرابه:

حين أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال بعد الهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى: حين خرج النبي ﷺ بثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً من أصحابه وخرج للقائهم ما بين تسعمائة وألف رجل، فجمع الله بين رسوله وبينهم على غير ميعاد في (بدر) فنصره الله عليهم، وكان في ذلك نصر للمسلمين وكسر شوكة أعدائهم.

غزوة بدر الكبرى:

المحاربون من كفار مكة، صمموا على حرب المسلمين حتى لا يفكروا في اعتراض قوافلهم، وكان النبي [أمام جيشين، أحدهما فيه السلاح والخيل والعُد، والآخر في ثلث من يقاتلونه عدداً، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف، ومن كل مطية غير الأقدام]^(٢).

(١) د. محمد عمارة- الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟ - مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ديسمبر ١٩٩٨ ص ٢٠.

(٢) عباس العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ص ٦٠.

[وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر، خليق أن يعلم مدى انتصاره ومدى ما يتوقعه بعده، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة، ليقبس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات، وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال، بعد انجلاء الفريقين ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما]^(١).

واتضح من فوز المسلمين في هذه الغزوة أهمية (الشورى) التي كانت من أهم أسباب النصر، فقد استشار الرسول ﷺ أصحابه في أمر الحرب، فاستقر رأيهم على التصدي لجيش قريش، وعندما وصل المسلمون إلى (بدر) عسكروا على أول بئر من آبارها..

وفوز المسلمين في غزوة (بدر الكبرى) يحمل دروسا كثيرة في الحروب، تؤكد عبقرية الرسول ﷺ وتوفيق الله سبحانه له ولصحبه. قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩].

[إن عبقرية محمد في قيادته، لعبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث صورها، ويرضاها المنصفون من الأعداء أو الأعداء]^(٢).

(١) عباس العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ص ٦١.

(٢) عباس العقاد- عبقرية محمد- مكتبة نهضة مصر ١٩٧٧م. ص ٦٢.

غزوة أحد: (١)

فى شوال من السنة الثالثة كانت غزوة أحد حين تجهز مشركو قريش بنحو ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بالثأر من النبى ﷺ فلما علم النبى ﷺ بهم خرج إليهم، فقتلهم بنحو سبعمائة من أصحابه، وكان النصر لهم حتى ولى المشركون الأدبار، إلا أن الرماة الذين جعلهم الرسول ﷺ - فى ثنية الجبل، يحمون ظهور المسلمين ولا يبرحون مكانهم، تركوه حين ظنوا أن المعركة انتهت بظهور هزيمة المشركين، ولكن الفرسان من المشركين كروا على المسلمين حين رأوا الثنية خالية فانتكس الأمر وصار كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فى ربيع الأول من السنة الرابعة: كانت غزوة (بنى النضير)، وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الذين كانوا فى المدينة، وعاهدوا النبى ﷺ حين قدمها مهاجرًا، فنقضوا العهد، فخرج إليهم النبى ﷺ، فتحصنوا بحصونهم ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتَهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ ۗ يَوْمَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الحشر: ٢].

(١) محمد بن صالح عثيمين- الضياء اللامع من خطب الجوامع- شركة الطباعة من مطبوعات الرئاسة العامة للإمارات العربية السعودية المتحدة- الرياض البحوث العلمية والافتاء- ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

وخرجوا منها أذلة، فنزل بعضهم فى (خيبر) وبعضهم فى الشام، وفى شوال من السنة الخامسة: كانت غزوة الأحزاب: الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ من مشركى قريش وغيرهم، بتحريض من اليهود من بنى النضير، الذين أرادوا أن يأخذوا بالنأر من النبى ﷺ، حين أجلاهم من المدينة، فمسكروا حول المدينة بنحو عشر الآف مقاتل، فضرب النبى ﷺ الخندق على المدينة من الناحية الشمالية، فحماها الله تعالى من الأعداء، فأرسل الله عليهم ريحاً شرقية عظيمة باردة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمَّا بَلَغُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفى ذى القعدة من هذه السنة حاصر النبى ﷺ بنى قريظة، آخر قبائل اليهود فى المدينة، فقتل رجالهم لنقضهم العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ، فأورث الله نبيه والمؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم^(١). وفى ذى القعدة من السنة السادسة كانت (غزوة الحديبية) التى كانت فيها بيعة الرضوان، حين خرج النبى ﷺ بنحو ألف وثلاثمائة رجل من أصحابه، يريد العمرة، فصدته المشركون عن ذلك، مع أن عادتهم ألا يصد أحد عن البيت، فأرسل إليهم عثمان بن عفان ليفاوضهم، فأشيع أنه قتل، فبايع النبى ﷺ أصحابه لقتال قريش، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

(١) محمد صالح بن عثيمين- الضياء من خطبة الجوامع ط ٢- الرياض

وفى محرم من السنة السابعة كانت (غزوة خيبر)، وهى حصون اليهود ومزارعهم فى الحجاز، فغزاهم النبى ﷺ لنقضهم العهد، وتحريضهم كفار قريش، وغيرهم على قتال النبى ﷺ، فحاصروهم حتى فتح الله عليه فغنم النبى ﷺ أرضهم وقسمها بين المسلمين.

وفى رمضان من السنة الثامنة، كانت غزوة فتح مكة، حين نقضت قريش العهد الذى كان بينها وبين النبى ﷺ فى الحديبية، فخرج إليهم فى نحو عشرة آلاف من أصحابه، ففتح الله عليهم وطهر أم القرى من الشرك وأهله، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا.

غير أن (هوازن وثقيف) علما أن النبى ﷺ قد فرغ من قتال قريش، فاجتمعوا له فى (حنين)، فخرج إليهم فى شوال من السنة الثامنة لقتالهم فى نحو اثنى عشر ألفا، وأعجب الناس بكثرتهم وقالوا لن نُغلب اليوم من قلة، فأراهم الله تعالى أن النصر عنده لا بسبب الكثرة، وأنزل فى ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفى السنة الرابعة من شهر رجب كانت (غزوة تبوك)، حين بلغ النبى ﷺ أن الروم قد جمعوا له يريدون غزوه فخرج ﷺ فى زمن عُسرة، وفى أيام شدة الحرب، وطيب الثمار، ووقت الرطب، والمسافة البعيدة. فنزل فى (تبوك) نحو عشرين يوماً ولم يكن قتال، ثم رجع إلى المدينة، وأقام فيها

ركائباً من حوله، من زعماء الكفار، يدعوهم إلى الإسلام، وصارت الوفود تأتي إليه من كل وجه، يعلنون إسلامهم، ويتعلمون منه دينهم. وهكذا كانت حياة النبي ﷺ حياةً وجهاداً، وعملاً، ودعوة إلى الله ودفاعاً عن دينه.

لقد جهز المقاتلين، وتعاون الجميع معه، ونزلت آيات من سورة البقرة تصف حالهم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفى غزوة تبوك: هذه عاد الجيش الإسلامي أدرجه حين تأكد من انصراف الروم عن القتال، وكان النبي قد سمع أنهم عيئوا جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما علم بعدولهم، توقف الجيش الإسلامي عن (الغزوة).

لم يحارب المسلمون قط لمجرد الحرب، وإنما صبروا على المشركين، حتى أمروا أن يقاتلهم كافةً كما كانوا يقاتلون المسلمين كافةً.

[وكانوا يحاربون من لا يؤمن عهده، ولا يتقى شره بالحلف والمسألة]^(١). قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَتَمْنَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

لقد كانت (غزوة تبوك) اختباراً عظيماً، نجح فيه المؤمنون صادقو

(١) عباس العقاد عبقرية محمد - نهضة مصر سنة ١٩٧٧م ص ٢٥

الإيمان وفشل فيه المنافقون، وكانت المعركة مع الروم. حيث أعلن (المنافقون) عن مخالفتهم، وأعلن (القرآن الكريم) سخط الله على هؤلاء ومن سار سيرتهم في عدم تأييد المسلمين في هذه المعركة^(١) قال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢].

لقد واجه الرسول ﷺ مواقف المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه كما واجه الكثير من العناء في سبيل الدعوة للإسلام.



(١) د. أحمد شلبي- توجيهات طبية يقدمها الرسول- الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١ ص ٢٧.